بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 19 غشت 2021

حجّيَّة السُّكوت في الخطاب السياسي العربي القديم

قراءة في الرَّسائل المتبادلة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان

محمَّد يوسف إدريس
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2021
All rights reserved © 2021

حجّيَّة السُّكوت في الخطاب السياسي العربي القديم

قراءة في الرَّسائل المتبادلة بين علي بـن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان[1]

1- يتفكرون 12

مقدّمة

تتعدَّد الأسباب التي تدفع بالإنسان إلى السُّكوت؛ فقد يضطر إلى ذلك بسبب مرض أو لتجنُّب عقاب يسلّط عليه، أو للتعبير عن مواقف (الاحتقار، ...)، وبهذا المعنى إنَّ «السكوت ترك التكلّم مع القدرة عليه»[1].

إنَّ السُّكوت من هذا المنظور فعل واعٍ يروم من خلاله الإنسان التأثير في الآخر، وهو المعنى الذي ذهب إليه الزَّمخشريّ (ت 538 هـ/ 1143م) بقوله: «إِذَا أَفْحَمَ [الرجل خصمه] قِيلَ: أَسْكَتَ [...]، وَأَسْكَتَ النَّاطِقَ [...] رَمَى خَصْمَهُ [...] بِمَا أَسْكَتَهُ»[2].

إنَّ هذه التَّصوُّرات دلّت على ضربين من السُّكوت: يتجلّى الأوَّل في اتّخاذ موقف يتكامل فيه المنطوق به والمسكوت عنه، فالواحد منهما يؤدّي ما عجز عنه الآخر. أمَّا الثّاني، فقوامه الإسكات بما هو استراتيجيَّة في رصف الكلام في أشكال متعدّدة (الكناية، التَّورية، الإضمار، التّلميح، الإشارة، ...) يحيل المنطوق فيها على كلام لم يقل(Le non- dit)، وعادة ما تكون الغاية من ذلك إحراج المرسَل إليه وإرباكه، وهو أسلوب ميّز الخطاب السياسي خلال القرون الخمسة الأولى من نشأة الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة.

علاقة المسكوت عنه بالمنطوق به تتطلّب بالضرورة وعي الإنسان بمقتضيات كلٍّ منهما (المنطوق به، المسكوت عنه)، فهما عملان يوظّفهما الإنسان لإبلاغ موقف بأفضل الأشكال وأبلغها.

إنَّ السكوت وفق التعريفات السابقة ضرب من ضروب سياسة القول ورصفه بطريقة تتيح للسَّاكت التأثير في الآخر.

وفي هذا السياق، ننزّل بحثنا في «ما سكت عنه معاوية بن أبي سفيان وعليّ بن أبي طالب في الرَّسائل المُتبادلة بينهما»، وهي رسائل تمَّ تبادلها بعد مقتل عثمان بن عفَّان (35 هـ/ 656م)، وقد عمَّق هذا الحدث الانشقاق السياسي بين المسلمين، فقد تضاربت مواقف الصحابة في تحديد الطرف الذي يحقّ له خلافة عثمان[3]، وقد عرفت الأحداث تطوُّرات غير مسبوقة، فاندلعت الحروب بين المُتخاصِمين (الجمل 36هـ، وصفّين 37هـ)، وفيها وُظّفت جميع الوسائل (التفاوض، المماطلة، عقد التحالفات، القتال، ...).

1- انظر الجرجاني (الشريف): كتاب التعريفات، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط2، 1988، ص120

2- انظر الزّمخشريّ (أبو القاسم محمود جار الله بن عمر): أساس البلاغة، تحقيق مجموعة من الباحثين، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، لبنان، ط2، (د ت)، مج 3، ص159

3- انظر جعيط (هشام): الفتنة، جدليَّة الدّين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، مراجعة هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، 1993، ص181

على أنَّ ما يلفت الانتباه أنَّ المُتخاصِمين كانوا إلى الأمس القريب مُتّفِقين على ضرورة الإطاحة بعثمان، باستثناء معاوية بن أبي سفيان، فعائشة بنت أبي بكر حرَّضت المسلمين على التمرُّد على عثمان وقتله[4]، وقد كان لأخيها محمَّد دور رئيس في قتل الخليفة[5]، على أنَّها بمجرَّد مهلك عثمان قامت تُطالب بالقِصاص له من عليّ بن أبي طالب (ت 40هـ)[6]، وحمَّل طلحة والزبير عليّاً مسؤوليَّة مقتل عثمان. أمَّا معاوية، فإنَّ بعض المصادر أشارت إلى اتّخاذه القصاص من «القُرّاء» شرطاً لمبايعة علي خليفة.

وقد عُدَّ معاوية ألدَّ أعداء عليّ، فلئن لم تتطلّب إزاحة عائشة وطلحة والزّبير من عليّ جهداً مضنياً، فإنَّ ابن أبي سفيان مثّل حجر عثرة في وجه (عليّ)؛ ذلك أنَّ معاوية استطاع أنْ يكسب تأييد أهل الشّام لنصرته، مستغلّاً الانقسامات التي عرفها حزب عليّ.

وفي هذا المقال، نسعى إلى تحليل رسالتين تبادلهما معاوية وعليّ قبل «واقعة المصاحف»، وقد عمل كلّ طرف منهما على تأكيد أحقيّته بالخلافة من جهة، ومن جهة أخرى نفى كلّ واحد منهما أنْ يكون الطّرف المقابل قادراً على قيادة المسلمين، وهما أمران ميّزا التّنافس الذي قام بين الرَّجُلين.

فهل يعكس ما صرَّح به كلّ طرف حقيقة ما يعتمل في داخله؟ وما الشَّرعيَّة الدّينيَّة التي استند عليها كلُّ طرف في إثبات صحَّة مواقفه؟ وما الدَّور الذي نهض به النّصُّ الدّينيّ في بناء دلالات الخطاب السّياسي، وفي محاولة المرسِل إسكات المرسَل إليه؟ وما أهمُّ أساليب الإسكات؟ ولماذا اعتمد كلُّ طرف السكوت أسلوباً؟ ألا يمكن القول إنَّ اعتماد الإشارة والتّلميح اختيار واعٍ عبَّر عن رغبة مُنتج النَّصّ في إحراج المرسَل إليه؟ وما طبيعة العلاقة القائمة بين المنطوق به والمسكوت عنه في الرّسالتين؟ وما الخلفيَّات الدّينيَّة والسّياسيَّة والشَّخصيَّة المُتحكّمة في بناء دلالات كلّ رسالة؟

4- ذكر الطّبري (محمَّد بن جرير) (ت310 هـ): تاريخ الرُّسل والملوك، حققه محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة مصر، ط2، (دت)، ج4، ص458 ص459: أنَّ «عائشة رضي الله عنها لمَّا [أقفلت راجعة] إلى مكة [فـ]لقيها عبد بن أمّ كلاب [... فقال لها]: «[...قد] اجتمعوا (أهل المدينة) على عليّ بن أبي طالب»، فقالت: «والله ليت أنَّ هذه انطبقت على هذه إنْ تمَّ الأمر لصاحبك، رُدّوني رُدّوني»، فانصرفت إلى مكة وهي تقول: «قُتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبنَّ بدمه»، فقال لها ابن أمّ كلاب «ولِمَ ؟ فو الله إنَّ أوَّل من أمال حرفه لأنتِ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر، قالت: «إنّهم استتابوه ثمّ قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأوَّل»، [...ثمَّ] انصرفت إلى مكّة فنزلت على باب المسجد فقصدت الحجر فسترت واجتمع إليها النّاس، فقالت: «يا أيُّها النّاس، إنَّ عثمان قتل مظلوماً، والله لأطلبنَّ بدمه».

5- روت كتب الأخبار أنَّ محمَّداً بن أبي بكر «أخذ بلحية عثمان فقال: «أخزاك الله يا نعثل»[أيْ الأحمق]، فقال عثمان «لست بنعثل، ولكنْ عبد الله وأمير المُؤمنين»، فقال محمَّد: «ما أغنى عنك معاوية وفلان»؟ فقال عثمان: «يا ابن أخي دَع عنك لحيتي، فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه»، فقال محمَّد: «ما أريد بك أشدّ من قبضي على لحيتك»[...] وضرب كنانة بن بشر جبينه ومقدّم رأسه بعمود حديد فخرّ [...]، وضربه سودان بن حمران المرادي [...] فقتله، وأمَّا عمرو بن الحمق، فوثب على عثمان، فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات، وقال: «أمَّا ثلاث منهنّ فإني طعنتهنّ لله، وأمَّا ستّ فإني طعنت إيّاهنّ لمَا كان في صدري». ابن منيع (محمَّد بن سعيد): كتاب الطّبقات الكبرى، عيون للنّشر والتّوزيع، (دون ذكر مكان النشر)، 1982، ج3، ص137

6- ذكرت أغلب المصادر أنَّ علاقة عليّ بعائشة عرفت تقلّبات عديدة نظراً لموقف عليّ من عائشة في«حادثة الإفك»، انظر في ذلك كتب التّفسير أثناء النظر في النّور 24/11، إذ قيل إنَّ عليّاً قال للرسول عندما سأله المشورة في أمر عائشة: «لِمَ يُضيّق الله عليك والنّساء سواها كثير»؟ و«هذا القول بلغ عائشة فلم تَنسه طول حياتها». انظر رضا (محمَّد): محمَّد (صلى الله عليه وسلم)، المكتبة العصريَّة، صيدا، لبنان، 2007، ص245. ولعلَّ موقف عليّ من عائشة هو ما يفسّر تحاملها عليه بعد مقتل عثمان.

هذه بعض الإشكاليّات التي نعمد إلى معالجتها بالمقارنة بين الرّسالتين من خلال النّظر في جدليّة الدّيني والسّياسي؛ إذ نسعى إلى تبيُّن الأسباب الدّاعية إلى اعتماد «السُّكوت» أسلوباً للتّواصل بين الطّرفين، ذلك أنّ تبيُّن مضامين الرّسائل المُتبادَلة بين معاوية وعليّ يتطلّب منّا الوعي بأمرين متلازمين: أوّلهما إدراك طبيعة الرّسائل المُتبادَلة وما أحاط بها من أحداث سياسيّة، وثانيهما تبيُّن طبيعة العلاقة التي ربطت بين طرفيْ الرّسائل (المُرسِل والمُرسَل إليه) أثناء تبادل الرّسائل وقبلها.

رسالة من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب[7]

«من عبد اللّه معاوية[8] بن أبي سفيان[9] إلى عليّ بن أبي طالب.

أمّا بعد، فإنّ اللّه ـ تعالى جَدُّه ـ اصطفى محمّداً ـ عليه السّلام ـ لرسالته، واختصّه بوَحيه وتأدية شريعته، فأنقذ به من العمَاية، وهَدَى به من الغواية، ثمّ قبَضه إليه رشيداً حميداً، قد بلّغ الشّرع، ومحق الشّرك، وأخمد نار الإفك، [الكذب] فأحسن اللّه جزاءَه، وضاعفَ عليه نعمه وآلاءه، ثمّ إنّ اللّه سبحانه اختصّ محمّداً ـعليه السّلام- بأصحاب أيّدوه وآزروه ونصروه وكانوا كما قال اللّه سبحانه لهم: «أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ»[10]. فكان أفضلهم مرتبة، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة، الخليفة الأوّل الذي جَمَعَ الكلمة ولَمَّ الدّعوة وقاتل أهل الرِّدَّة، ثمّ الخليفة الثّاني الذي فتح الفتوح ومَصَّرَ الأمصار وأذلّ رقاب المشركين، ثمّ الخليفة الثّالث المظلُوم الذي نشر الملّة وطبّق الآفاق بالكلمة الحنيفيّة.

فلمّا استوثق الإسلام وضرب بجِرانِه [الجِرانُ باطن العُنُق، وقيل مُقدَّم العنق من مذبح البعير إلى منحره]، عدوتَ عليه فبَغَيتَهُ الغوائل [المهالك]، ونصبتَ له المكايد، وضربتَ له بطن الأمر وظهره،

7- انظر ابن أبي الحديد (عبد الحميد) (ت 656 هـ): شرح نهج البلاغة، مراجعة وتحقيق الشّيخ حسن تميم، تحت إشراف لجنة إحياء الذّخائر في دار مكتبة الحياة، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1979، مج 4، ص ص 604-602

8- انظر الذّهبي (الحافظ شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان) (ت748 هـ): تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام، دار النّفائس، أناضول، تركيا، ط2، (د ت)، مج 2، ص 15«معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ [...]، وأمّه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. أسلم قبل أبيه في عمرة القضاء، وبقي يخاف من الخروج إلى النّبيّ، من أبيه. [...أمّا] أخته [فهي] أمّ المؤمنين أمّ حبيبة [...]، و[قد] أظهر إسلامه يوم الفتح».

نودّ الإشارة -فيما يتعلّق بخبر إسلام معاوية في عمرة القضاء (7 هـ)- إلى تفرّد الذّهبي بمحتوى هذا الخبر دون غيره من المُؤرّخين -بحسب علمنا- الذين أجمعوا -في ما قرأنا- على أنّه أسلم يوم فتح مكّة.

9- نقرأ في ابن الأثير (عز الدّين) (ت630هـ): أسد الغابة في معرفة الصّحابة، تحقيق علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، قدّم له وقرّظه محمّد عبد المنعم البري وعبد الفتّاح أبو سنّة وجمعة طاهر النّجّار، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، (د ت)، مج3، ص9: «صَخْرُ بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي، [وهو] أبو سفيان القرشيّ الأمويّ. ويُسمَّى أبا حنظلة. وُلد قبل الفيل بعشر سنين، [...] أسلم ليلة الفتح، وشهد حنيناً والطّائف، مع رسول الله، [...] استعمله رسول الله على نجران [...]، وقيل: إنّ عين أبي سفيان الأخرى فُقئت يوم اليرموك، وشهد اليرموك، وكان هو القاص في جيش المسلمين يحرّضهم ويحثّهم على القتال». وفي شرح نهج البلاغة، (سبق ذكره)، ج1، ص268: أنّ «أبا سفيان هو الذي قاد قريشاً في حروبها إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله، وهو رئيس بني عبد شمس بعد قتل عُتبة بن ربيعة ببدر، ذاك صاحب العِير، وهذا صاحب النّفير، وبهما يضرب المثل».

10- سورة الفتح 48/29

ودسستَ عليه، وأغريتَ به، وقعدتَ حيث استنصركَ عن نصرِه، وسألكَ أنْ تُدركه قبل أنْ يُمزَّق فما أدركتَه، وما يوم المسلمين منك بواحد!

لقد حسدتَ أبا بكر والتَوَيتَ عليه ورُمتَ إفساد أمره، وقَعدتَ في بيتك واستغويتَ عِصَابَةً من النَّاس حتَّى تأخَّروا عن بيعتِه، ثمَّ كرهتَ خلافة عمر وحسدتَه واستطلتَ مُدّتَه وسُررتَ بقتلِه وأظهرتَ الشَّماتة بمُصابه، حتَّى إنّك حاولت قتل وَلده لأنَّه قتل قاتل أبيه، ثمَّ لم تكن أشدّ منك حسداً لابن عمّك عثمان، نشرتَ مقابحه وطويتَ محاسنه وطعنتَ في فقهه ثمَّ في دينه ثمَّ في سيرته ثمَّ في عقله، وأغريتَ به السُّفهاء من أصحابك وشيعتك، حتَّى قتلوه بمحضر منك، لا تدفَع عنه بلسان ولا يدٍ، وما من هؤلاء إلّا من بَغَيتَ عليه، وتلكّأتَ في بيعته حتَّى حُملتَ إليه قهْراً تُساق بخزائم الاقتسار كما يُساقُ الفحل المخشوش، [يقال لما يُدخَلُ في أَنف البعير الخِشَاش، لأَنَّه يُخَشُّ فيه أَي يدخل، ومنه يُقاد]، ثمَّ نهضت الآن تطلب الخلافة، وقتلةُ عثمان خلصاؤك وسُجراؤك والمُحدِقون [المقرّبون إليك] بك، وتلك من أماني النّفوس وضلالات الأهواء.

فدَعِ اللّجاج والعبث جانباً، وادفعْ إلينا قتَلَةَ عثمان وأَعِدّ [أَعِدْ] الأمر شورى بين المسلمين، ليتّفقوا على مَنْ هو لله رضا، فلا بيعة لك في أعناقنا ولا طاعة لك علينا، ولا عُتبى لك عندنا، وليس لك ولأصحابك عنْدي إلّا السَّيف، والذي لا إله إلّا هو لأطلُبنَّ قَتَلَةَ عثمان أين كانوا، وحيث كانوا حتَّى أقتُلهم أو تلتحق رُوحي بالله.

فأمَّا ما تزال تمنّ به من سابِقَتِكَ وجهادك، فإنّي وجدتُ اللّه سبحانه يقول: «يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ»[11].ولو نَظَرْتَ في حال نفسك لوجدتها أشدَّ الأنفس امتناناً على الله بعملها، وإذا كان الامتنان على السَّائل يُبطل أجر الصَّدقة، فالامتنان على الله يُبطل أجر الجهاد، ويجعله كـ «صفْوَان عَلَيهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْكَافِرِينَ»[12].

1. استراتيجيَّة الإسكات في رسالة معاوية:

سعى معاوية في فاتحة الرّسالة إلى إثبات انتمائه إلى المسلمين واتّصاله باللّه، فهو «عبد الله» من جهة، وهو مُصدّق لما أنزل على محمَّد من وحي من جهة أخرى.

وما يلفت الانتباه في حديث معاوية عن اصطفاء الله محمَّداً لأداء رسالته اعتباره الاصطفاء خاصَّاً، في قوله: «اختصَّه بوحيه وتأدية شريعته»، فالله هو من اختار محمَّداً، وهو من اختار له الأصحاب، إذ «اختصَّ محمَّداً ـ عليه السَّلام ـ بأصحاب أيَّدوه وآزروه ونصروه»، وقد دقّق معاوية المقصود

11- سورة الحجرات49/17

12- سورة البقرة2/264

بالأصحاب، فإذا هم ثلاثة أبو بكر الصّديق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان[13]، وقد عدَّد مناقبهم وذكر أهمَّ أعمالهم في سبيل نصرة الإسلام.

وما يشدُّ الانتباه في الصفات والأعمال المنسوبة إلى الخلفاء الثلاثة، وهم (أبو بكر، وعمر، وعثمان) اقتصارها على فترة زمنيَّة مخصوصة تمثّلت في ما بعد فتح مكَّة، وهو أمر في غاية الأهميَّة -في تقديرنا-، فالأوَّل «قاتل أهل الرِّدَّة، [أمَّا] الخليفة الثّاني، [فهو] الذي فتح الفتوح ومَصَّرَ الأمصار وأذلّ رقاب المشركين، ....».

تحدَّث معاوية عن أهل الشرك، فإذا هم المرتدُّون عن الإسلام في عهد الخليفة أبي بكر الصّدّيق، وهو بذلك يغضّ النظر عن أهل الشرك قبل يوم فتح مكّة؛ لأنَّ في الحديث عن مشركي قريش قبل الفتح إحراجاً لمعاوية الذي أسلم يوم فتح مكّة، بحسب أغلب المصادر التاريخيَّة.

1. أ ـ المقارنة بين صورة معاوية وصورة علي

صوَّر معاوية عليَّاً في هيئة الحاسد للخلفاء السَّاعي إلى الفتنة...، فأفعاله شنيعة تمسُّ بالإسلام حيناً، وتسيء إلى أصحاب رسول الله حيناً آخر[14].

ولا يخفى على أحد موقف «القرآن الكريم» من الحسد، فهو دالٌّ على تمنّي المرء زوال النّعمة عن غيره، ففي النّساء54/4 نقرأ قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَينَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَينَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا».[15]

اقترن الحسد بأهل الكفر والشّرك[16]، فالأحاديث النَّبويَّة نهت عن التَّباغض والشَّماتة والمنّ والافتخار وحرَّمت الحسد، ففي «رياض الصَّالحين» للنّووي الدّمشقيّ (ت 676 هـ) نقرأ: «أنَّ النّبيَّ قال: إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ...»، و«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ

13- نشير إلى أنَّ بني أميَّة ينقسمون إلى أعياص وعنابس، فعثمان بن عفّان من الأعياص، أمَّا أبو سفيان، فهو من العنابس.

14- صرّح معاوية بذلك في رسالة أخرى، انظر ابن أبي الحديد (عبد الحميد): شرح نهج البلاغة (سبق ذكره)، مج 5، ص 179

15- سورة النّساء4/ 54

16- وردت مادَّة (ح، س، د) في «القرآن الكريم» خمس مرَّات في أربعة مواضع، هي: البقرة2/109، والنّساء 4/54، والفتح 48/15(مرَّتين)، والفلق 113/5، وقد تعلّقت جميعها بالمشركين، وهي تتوزّع على النَّحو الآتي: الفعل (مرَّة واحدة في صيغة الماضي ومرَّتين في صيغة المضارع، اسم الفاعل مرَّة واحدة، والمصدر مرَّة واحدة).

مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»، و«قَالَ: ...كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ، فالله [...] يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[17].

إنَّ ما يلفت انتباه قرَّاء رسالة معاوية، في ما يتعلّق بهذا المجال، غموض بعض الجُمل، ولاسَّيما في مستوى تحديد ضمير المفرد المذكّر الغائب «هـ»، وذلك في قول معاوية: «فلمَّا استوثق الإسلام [...] عدوتَ عليه [...] ودسستَ عليه، وأغريتَ به، وقعدتَ حيث استنصركَ عن نصره وسألكَ أنْ تُدركه قبل أنْ يُمزّق فما أدركتَه».

ويذهب بنا الظّنُّ أوَّل الأمر إلى أنَّ المقصود بضمير «هـ» الإسلام، على أنَّه سرعان ما يميل بنا الضَّمير إلى عثمان بن عفّان لقول معاوية: «وسألكَ أنْ تُدركه قبل أنْ يُمزَّق فما أدركتَه».

وقد يكون الأمر في ذلك عائداً إلى خطأ في النَّسخ أو في تحقيق الرّسالة، وقد يكون الأمر مُتعمَّداً من قبل معاوية، إذ من شأن هذا التَّردُّد في تحديد المقصود بضمير المفرد الغائب «هـ» أنْ يُسوّي بين الإسلام وعثمان بن عفَّان، فيغدو عثمان بن عفّان كناية عن الإسلام، وبذلك يصبح قاتله أو مدبّر مهلكه مارقاً لا صلة له بالإسلام.

1. ب ـ دور علي بن أبي طالب في مهلك عثمان في تصوُّر معاوية بن أبي سفيان

تضمَّنت الرّسالة اتّهامات واضحة من معاوية لعليّ يُحمّله فيها المسؤوليَّة المطلقة في ما يتعلّق بمهلك عثمان بن عفَّان[18]، فقتلة الخليفة الثالث من أتباع عليّ[19]، وهو ما تجلّى في قول معاوية لعلي: «أغويتَ به السُّفهاء من أصحابك وشيعتك، حتّى قتلوه بمحضر منك، لا تدفَع عنه بلسان ولا يدٍ».

عمد معاوية إلى تصوير مواقف عليّ من عثمان تصويراً دقيقاً، فجعل عثمان يستصرخ عليّاً طالباً عونه ونصرته، بيد أنَّ الثّاني بدا خاذلاً للأوَّل متآمراً عليه محرّضاً النَّاس على قتله والفتك به، وفي ذلك خروج من عليّ على مقتضيات البيعة التي أعطاها لعثمان، وقياساً على ذلك يكون إصرار معاوية على عدم مبايعة عليّ «فلا بيعة لك في أعناقنا ولا طاعة لك علينا، ولا عُتبى لك عندنا» التزاماً ببيعة عثمان ووفاءً للميثاق.

17ـ انظر النّووي الدّمشقيّ (محيي الدّين بن شرف): رياض الصّالحين، دار الفجر، القاهرة مصر، ط2، 2005، ص175، باب «النّهي عن الإيذاء والتباغض وتحريم الحسد والتّجسس وسوء الظّنّ واحتقار المسلمين والغشّ وإظهار الشّماتة والطّعن في الأنساب والغدر والنّهي عن المنّ والافتخار وتحريم الهجران بين المسلمين والتّعذيب».

18ـ نجد معاوية في رسالة أخرى يتّهم عليّاً بقتل الزّبير وطلحة ظلماً، «وهما من الموعودين بالجنّة والمبشّر قاتل أحدهم بالنّار»، انظر ابن أبي الحديد (عبد الحميد): شرح نهج البلاغة (سبق ذكره)، مج 5، ص 178 وما بعدها.

19ـ نشير في هذا المجال إلى أنَّ كلاً من الزّبير وطلحة وظّف هذا الأسلوب لتبرير تمرُّده على عليّ، وخير مثال على ذلك خطبتهما في أهل البصرة قبل واقعة الجمل. انظر الطّبري (محمَّد بن جرير): تاريخ الرّسل والملوك، (سبق ذكره)، ج 4، ص464

قلب معاوية الأمر رأساً على عقب، إذ لا بيعة لمن نكث البيعة، فعليّ في رسالة معاوية خارج عن الملّة مخالف لسنَّة الرَّسول ولأوامر الشَّرع والملّة، خوَّان أفَّاك حاسد للخلفاء، يطلب ما هو ليس بأهلٍ له. وقد سعى معاوية إلى إبراز ما كان بين عليّ وعثمان من قرابة في الدّم «ابن عمّك»[20]، فإذا عليّ لا خير فيه لأهله غدَّار بالقريب قبل البعيد، فما بال عامَّة المسلمين بحالهم معه؟

أنشأ المرسِل رسالته على قاعدتين متوازيتين: قوام الأولى الرَّسول والصَّحابة ومعاوية، ومدار الثّانية على عليّ وأتباعه من دعاة الفتنة ومُدبّريها، ومُؤجّجي نار الإفك، ومن أهمّ الآليَّات التي وظّفها معاوية المقارنة بين الخلفاء وعليّ، فلئن كان الخلفاء الثّلاثة عُرفوا بفضائلهم ومكارم أخلاقهم وحسن أعمالهم في نشر الإسلام ورفع رايته وجمع كلمة المسلمين، فإنَّ عليَّاً كان ميَّالاً إلى تفريق شمل المسلمين ونشر الفتنة بينهم.

ولا يخفى على القرَّاء أنَّ علاقة عليّ بالخلفاء الرَّاشدين السَّابقين له كانت متوتّرة، فكتب التَّاريخ أشارت إلى تأخّر عليّ والعبَّاس وآل البيت عن مبايعة أبي بكر، وقد ذكرت أيضاً أنَّ عليَّاً لم يكن ممَّن تصلهم بعمر بن الخطّاب صُحبة، وكذلك الأمر على ما يبدو في ما يتعلّق بعثمان.

حاول معاوية التّمييز بين الصَّحابة فجعلهم درجات، فكانت الدَّرجة الأولى خاصَّة بالخلفاء، ثمَّ يأتي بعدهم باقي الصَّحابة، وفي المُقابل كان عليٌّ ومن تبعه من أهل الفتنة، ومن المعلوم أنَّ بُعد أهلها عن منزلة الصَّحابة كبُعد السَّماء عن الأرض.

رام معاوية من خلال المقارنة بين عليّ وسائر الخلفاء جعل مُنافسه مناقضاً للخلفاء، أخلاقاً وسلوكاً، وهو بذلك يُفقده كلَّ سند دينيّ وأخلاقيّ، على أنَّ المقارنة لم تقف عند هذا الحدّ، بل اتّسعت مجالاتها، ومنها المقارنة بين معاوية وعليّ، فلئن كان الثّاني من دُعاة الكفر والفتنة، فإنَّ الأوَّل من طالبيْ الحقّ، يطلب القصاص إعلاءً لكلمة الإسلام والمسلمين حفاظاً على وَحدتهم، ومَا هبّته إلّا هبَّة المُؤمن الغيور قام ينصر دين الله ويردُّ عنه أهل الإفك، «والذي لا إله إلّا هو لأطلُبنَّ قَتَلَةَ عثمان أين كانوا، وحيث كانوا حتَّى أقتُلهم أو تلتحق رُوحي بالله». يطلب معاوية الآخرة، ولا يعبأ في سبيل ذلك إنْ أُريق دمه، أمَّا عليّ، فهو يطلب الدّنيا ومباهجها، غوى عليّ وضلَّ، في حين اتّقى معاوية وثبت على الدّين القويم[21].

20- نقرأ في ابن منيع (محمَّد بن سعيد): كتاب الطّبقات الكبرى، (سبق ذكره)، ج3، ص5، «عثمان هو ابن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وأمُّه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وأمُّها أمُّ حكم، وهي البيضاء بنت عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وكان عثمان في الجاهليّة يكنّى أبا عمرو، فلمَّا كان الإسلام ولد له من رقيَّة بنت رسول الله غلام سمّاه عبد الله [...]، فكنّاه المسلمون أبا عبد الله».

21- نشير في هذا المجال إلى أنَّ الإمام عليَّاً بن أبي طالب وجَّه هذه التّهمة بدوره إلى معاوية، في أكثر من رسالة من «نهج البلاغة»، (سبق ذكره).

إنَّ أسلوب المقارنة سمة قارَّة في رسائل معاوية التي بعث بها إلى عليّ، ففي «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد (ت656هـ) أنَّ معاوية «ما يزال يكيده [عليّ/ المفعول به] بالكتاب يكتبُه، والرّسالة يبعثها يطلب غِرّتَهُ لينفث بما في صدره من حال أبي بكر وعمر، إمَّا مُكاتبة أو مُراسلة [أيْ من خلال رسول]، فيجعل ذلك حجَّة عليه عند أهل الشّام [... وأتباع عليّ من] أهل العراق الّذين [...] يعتقدون إمامة الشّيخين إلّا القليل الشّاذ من خواصّ الشّيعة»[22]. بالإضافة إلى ذلك فإنَّ جزءاً من حزب عليّ له وشائج قربى بأبي بكر، ومن بينهم نذكر محمَّداً بن أبي بكر الصّديق[23].

كان معاوية يطلب حجَّة (رسالة مكتوبة) تُوقع بين عليّ وأتباعه وترفع عن أهل الشّام أيَّة ريبة في دعوة معاوية، ويبدو أنَّ عليّاً كان واعياً بغاية معاوية، إذ «كان الجواب مُجمجماً غير بيّن، ليس فيه تصريح بالتّظليم ولا التَّصريح ببراءتهما»[24].

ثمَّ إنَّ ظاهر رسالة معاوية يُوحي إلينا بأنَّ بحث صاحبها عن حجَّة دامغة تُؤكّد تورُّط عليّ في مقتل عثمان نابع من حميَّة الدَّم التي تجري في العروق من جهة، والانتصار للحقّ من جهة أخرى، فمعاوية صادق السَّريرة في طلبه الثّأر لعثمان[25]، وليس أصدق على ذلك من ربطه بين موته والالتحاق بالله، وهي سمة يتَّصف بها المُجاهدون، فإمَّا نصرة الدّين وإمَّا الشَّهادة، وبذلك يُقيم معاوية الحجَّة على سوء صراط عليّ واستقامة مسلكه. على هذا النَّحو رسم معاوية لنفسه صورة المُدافع عن الحقّ، وفي المقابل أعرض عن ذكر مطامعه في خلافة عثمان بن عفَّان، فأقصى ما يدعو إليه تنحّي عليّ بن أبي طالب عن خلافة المسلمين وجعل الأمر شورى بينهم.

ولا ضير في دعوته، فـ «القرآن الكريم» دعا إلى الشّورى، وقد عمل الرَّسول بها، فما الذي يخشاه عليّ؟ دعاه معاوية إلى الشّورى، فلماذا يرفض عليّ؟ أَوَ يخشى أنْ يخرج من الشّورى بخُفَّيْ حنين؟ ومن قبل خرج بهما يوم تشاور القوم فاختاروا عثمان دونه.

22- انظر ابن أبي الحديد (عبد الحميد): شرح نهج البلاغة، (سبق ذكره)، مج 5، ص602

23- انظر ابن منيع (محمَّد بن سعيد): كتاب الطّبقات الكبرى، (سبق ذكره)، ج3، ص 137. ويبدو أنَّ عليّاً في تقدير العديد من المؤرخين المسلمين قد ساهم بطريقة أو بأخرى في أحداث مقتل عثمان، إذ أكرم محمَّداً بأنْ عيّنه والياً له على مصر. انظر نهج البلاغة، (سبق ذكره)، ج1، ص95.

ولعلّه من المفيد الإشارة إلى أنَّ محمَّداً تربَّى في حجر عليّ، ذلك أنَّ عليّاً تزوَّج من أمّ محمَّد بعد موت أبي بكر. انظر هوامش الصَّفحة نفسها من المرجع نفسه.

24- انظر ابن أبي الحديد (عبد الحميد): شرح نهج البلاغة، (سبق ذكره)، مج5، ص603

25- نشير في هذا المقام إلى أنَّ عائشة اعتمدت هذا الأسلوب قبل معاوية، انظر الطّبري (محمَّد بن جرير): تاريخ الرّسل والملوك، (سبق ذكره)، ج 4 ص458 وص459

إنَّ معاوية كان يطلب الخلافة لنفسه منذ السَّاعة الأولى، بيد أنَّنا نلاحظ اعتماد معاوية الإغماض والتَّعمية بأنْ قدَّم نفسه في هيئة المُتعفّف الزَّاهد في الدّنيا وملذّاتها، وكأنَّنا بسيرته تلك تتطابق مع سير الخلفاء الرَّاشدين السَّابقين.

وبناء على ذلك، فإنْ صادف وعُرضت عليه الخلافة ذات يوم، فإنَّه سيقبل الأمر نصرة للإسلام وصوناً له من أيدي المفسدين والعابثين أمثال عليّ، وليعلم المسلمون شرقاً وغرباً أنَّ ذلك من ضروب العناية الإلهيَّة، ففي كتب التَّاريخ وكتب الفرق إشارات عديدة إلى نشر الأمويين مقولات الجبريَّة، ومن بين الأساليب المُعتمدة لتحقيق ذلك أنَّهم نشروا أحاديث منسوبة إلى الرَّسول مضمونها أنَّ الرَّسول أخبر معاوية بأنَّه سوف يصبح في يوم من الأيّام والياً[26]، بقول الرَّسول لمعاوية: «إنْ وُلّيتَ فأحسِنْ»[27]. وزادوا عليها أحاديث أخرى تؤكّد تفضيل الرَّسول لمعاوية، ففي «تاريخ الإسلام» للذَّهبيّ نقرأ في الصَّفحة السَّادسة عشرة من الجزء الثّاني: «أنَّ النَّبيّ دعا لمعاوية قائلاً: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَقِهِ الْعَذَابَ» [...وعن] عبد الرَّحمن بن أبي عميرة [...قال]: سمعت رسول الله يقول لمعاوية: اللَّهُمَّ اِجْعَلْهُ هَادِيَاً مَهْدِيَّاً، وَاهْدِ بِهِ. [...و] عن عبد الله بن بسر أنَّ رسول الله استأذن أبا بكر وعمر في أمر فقال: أَشِيرَا، فقالا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فقال: اُدْعُوا مُعَاوِيَةَ [...]، فَإِنَّهُ قَوِيٌّ أَمِينٌ».

لمَّح معاوية السياسي إلى العامَّة برغبة معاوية المسلم في الخلافة، وصرَّح بذلك لعليّ، إذ تعمَّد معاوية أنْ يكون الأمر جليّاً عند عليّ لا لبس فيه، فهو يُخبره بأنَّ معاوية السّياسيَّ المُحنّك منافسٌ عنيدٌ متمرّدٌ في جميع الحالات، «فلا بيعة لك في أعناقنا ولا طاعة لك علينا، ولا عُتبى لك عندنا، وليس لك ولأصحابك عندي إلّا السَّيف».

حدَّد معاوية موقفه من عليّ ورسم حدود العلاقة التي تربط بينهما (الآن وغداً)، فمعاوية اتَّخذ السَّيف فيصلاً بينه وبين عليّ، وفي ما يتعلق بهذه المسألة نتساءل: كيف يستقيم موقف معاوية المُتشدّد مع دعوته إلى اعتماد الشّورى ومطالبة الإمام بتقديم قتلة عثمان؟

أراد معاوية تفريق شمل عليّ بيده (عليّ)، فهو يُطالبه بأنْ يدفع إليه «قتَلة عثمان»، وهم عند معاوية «خلصاء [عليّ] سُجراؤه والمحدِقون به»[28]. وقد طالبه أيضاً بإعادة «الأمر شورى بين المسلمين ليتّفقوا على مَنْ هو لله رضا».

26- نشير في هذا السياق إلى أنَّ الشيعة اعتمدوا الأسلوب نفسه، إذ نشروا أحاديث منسوبة إلى النَّبيّ محمَّد فيها تحريض على قتل معاوية، منها ما ذكره الذّهبي في الصّفحة العشرين من الجزء الثّاني من «تاريخ الإسلام»: «[...] عن أبي سعيد قال: قال رسول الله: «إذَا رَأَيتُمْ مُعَاوِيَةَ عَلَى مِنْبَرِي فَاقْتُلُوهُ».

27- ابن الأثير (عز الدّين): أسد الغابة في معرفة الصَّحابة (سبق ذكره)، مج5، ص204

28- نشير إلى «انضواء كثير من قتلته [عثمان] إليه [علي] عليه السّلام [...]، فثارت الأحقاد وتذكرت تلك الثارات الأولى». انظر ابن أبي الحديد (عبد الحميد): شرح نهج البلاغة، (سبق ذكره)، مج4، ص272

إنَّ مراوحة معاوية بين دعوة عليّ إلى تقديم قتلة عثمان من جهة، وتوعُّده بالحرب من جهة أخرى، لا تخلو من دهاء السّياسيّ وحنكة المُجرّب، فلو دفع عليّ لمعاوية بخلصائه الذين زعم معاوية أنَّهم قتلوا عثمان، فإنَّ عليًّا يكون بذلك كمن ضرب رأسه بفأسه. فلو فعل عليّ ما طَالبه به معاوية لأقام الحجَّة على نفسه أمام النَّاس وأكَّد ما كان يزعمه معاوية من تورُّطه في مقتل عثمان، وفرَّق النَّاس من حوله، وبان للنّاس فساد طريقه وعدم استحقاقه الخلافة.

وقد اعتمد معاوية في أداء هذه الرَّسائل الموجَّهة إلى عليّ الأمر «دع، اِدفع، أعد، «والنَّفي» لا طاعة، لا بيعة»، والحصر «ليس لك....إلّا السَّيف»، إذ دلَّ الأوَّل على الشّدّة والإلزام، أمَّا الثّاني، ففيه جزم وقطع لآمال عليّ، في حين كان الثّالث استفزازاً ودقّاً لطبول الحرب وإعلاناً عن الرَّغبة في المواجهة.

بدت الأساليب الثَّلاثة متناسقة؛ إذ انتقل معاوية من وضع الشّروط إلى التَّهديد دون أنْ يكون البادئ بها، فهو يُلقي بالكرة في ميدان عليّ، وعلى عليّ أنْ يختار بين السّلم أو الحرب، وكلاهما أمرّ من الآخر مذاقاً، وفي كلّ واحد منهما هلاك لعليّ.

2. النَّص الدّيني حجّة يُسكت بها المُرسِل المُرسَل إليه

احتوت رسالة معاوية على ثلاث آيات قرآنيَّة، وهي: الآية التَّاسعة والعشرون من سورة الفتح، فالآية السَّابعة عشرة من سورة الحجر، وأخيراً الآية الرَّابعة والسّتّون بعد المئة الثّانية من سورة البقرة. وقد قامت العلاقة بينها على تسلسل منطقيّ مخصوص؛ فكانت الأولى تمهيداً لما بعدها، وكانت الثّانية نتيجة لما قبلها، وهكذا دواليك. فترتيبها في نصّ رسالة معاوية جعلها بمنزلة الآية الواحدة، ذلك أنَّها رامت مُجتمعة تحقيق مقصد واحد.

2. أ ـ الحذف

ما يلفت الانتباه في ما يتعلّق بقوله تعالى في الفتح 29/48: «مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّورَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»، اكتفاء معاوية بجزء من الآية، وهو قوله: «أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»، ولعلَّ السَّبب في اقتصار معاوية على هذا الجزء من الآية ما تضمَّنه الجزء المُتبقيّ منها من تشبيه للمؤمنين الوارد ذكرهم في الإنجيل والتّوراة بالزَّرع، وهو يُعدّ معنًى فرعيًّا مقارنة بالمعنى الذي تعلّق بالجزء المُستشهد به. أمَّا الآية الثّانية، فهي تصف أصحاب المنّ الذين يتفضَّلون على السّائل بما أعطوه من صدقة، ونحن إذا ما تأمَّلنا الآية جيّداً، وجدنا ضمير

المُخاطب المُفرد «أنتَ» يعود على الرَّسول محمَّد، في حين تعلّق بمعاوية في متن الرّسالة، فإذا معاوية يمثّل امتداداً للرَّسول في مستوى الإيمان والسَّعي إلى نصرة دين الله، وفي المقابل كان عليّ امتداداً للأعراب.

2. ب ـ خلق سياق جديد للآيات القرآنيَّة

إنَّ استدعاء آي «القرآن الكريم» لإثبات صحَّة مواقف الذات المستشهدة بها أمر دارج في عدد كثير من الخطابات (الخطاب السياسي، الخطاب العقائدي/ علم الكلام، ...)، وعادة ما يُخضع المُستشهِدُ النَّص القرآني (المستشهد به) إلى تحويرات، وذلك بزرعه في سياقات غير السياقات الأصليَّة/ أسباب النزول، وهو ما تجلّى في رسالة معاوية من خلال توظيفه لقوله تعالى في الحجرات 49/14-17: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ*إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ*يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ*».

ذكر الواحدي النيسابوري (ت468هـ) في أسباب النّزول أنَّ المقصود بالأعراب «أعراباً من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشّهادتين ولم يكونوا مُؤمنين في السّرّ [...]، وكانوا يقولون لرسول الله: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نُقاتلك كما قَاتلك بنو فلان فأعطنا من الصَّدقة، وجعلوا يَمنّون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية»[29].

ممَّا تقدَّم ذكره يتبيَّن لنا أنَّ الآية السَّابعة عشرة من السُّورة شديدة الالتصاق بما قبلها، فهي اختزلت موقف الله من الأعراب الذين يُساومون الرَّسول، أمَّا في الرّسالة، فإنَّ معاوية تعمَّد فصل الآية عن سابقاتها، وذلك لما تحتويه من أمور تحرجه أكثر ممَّا تُحرج عليَّاً، ففيها تمييز واضح بين الإيمان والإسلام، وهو فصل يُحرج من تأخَّر إسلامه أمثال معاوية وغيره من الطّلقاء، إذ يظلُّ إسلامهم موضع سؤال. يضاف إلى ذلك أنَّ هذه الآيات تعتبر الجهاد صفة مميّزة للمؤمنين، وهو أمر أكّدته الأحاديث النّبويَّة التي ثمَّنت الجهاد وأعلت من شأن المُجاهدين، مثال ذلك ما ورد في صحيح البخاري (ت256 هـ/780 م) عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه [...] قال: قِيلَ يا رسول الله أيُّ النّاس أفضل؟ فقال رسول الله: «مُؤمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ...»[30].

29ـ انظر الواحدي النيسابوري (علي بن أحمد): أسباب النّزول، تحقيق محمَّد عبد القادر شاهين، منشورات محمَّد علي بيضون، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 205

30ـ انظر البخاري (محمَّد بن إسماعيل): الحديث الصّحيح، دار الفجر للنّشر والتّوزيع، القاهرة مصر، ط1، (د ت)، ج 2، ص50 «كتاب الجهاد والسّير».

إنَّ هذه الأمور مُحرجة لمعاوية فهو ما جَاهد مع المسلمين لحظة نزول الآيات، وهو إلى جانب ذلك من الطّلقاء، والطّلقاء أقرب إلى الإسلام/ الاستسلام منهم إلى الإيمان.

إنَّ تلك الأمور تدعّم موقف عليّ بن أبي طالب بالأساس، فهو لدى عامَّة المسلمين من المُجاهدين، إنْ لم نقل سيّدهم، وهو ما يُصَعِّبُ على معاوية إقناع المسلمين بما يُخالف ذلك الأمر الشّائع بينهم.

كان معاوية واعياً بالمزالق التي يحتويها الاستناد إلى النّصّ المقدَّس، ولكنَّه ما كان ليستطيع تجنُّب توظيفه، فهو قوام شرعيَّة كلّ خطاب يروم الإقناع بصواب دعواه في ما يتعلّق بالصّراع حول الخلافة.

على أنَّ ما ميَّز معاوية في هذا المجال اعتماده على أمرين مُتوازيين هما: الحذف، إذ اكتفى بأجزاء مخصوصة من الآيات، وذلك بالنَّظر إلى مقاصده، أمَّا الأمر الثّاني، فيتمثّل في زرع الشَّاهد الدّيني في سياق جديد مخالف للسّياق الأصليّ/ القرآنيّ. فيذهب بنا الظّنّ إلى أنَّنا إزاء نصّ قرآنيّ مقدَّس، بيد أنَّنا إزاء نصّ سياسيّ من مبتدئه إلى منتهاه، وهو ما يتجلّى بوضوح في ما يتعلّق بالموضع القرآنيّ الثّالث الوارد بالرّسالة، وهو قوله تعالى في البقرة 264/2: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْكَافِرِينَ».

إذ اقتصر معاوية على الجزء الأخير من الآية، أيْ قوله: «صَفْوَان عَلَيهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْكَافِرِينَ»، دون الجزء الأوّل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ»، وهو جزء وإنْ أكَّد بطلان الصَّدقة بفعل المَنّ، فإنَّه لم ينفِ اتّصاف الفاعل/ المُتصّدق بالإيمان، وإذا ما انتقلنا إلى السّياق النَّصّيّ لرسالة معاوية، ألفينا الجزء الذي حذف من الآية لو تمَّ استحضاره لبطل مقصد معاوية، إذ لن يكون بوسعه نفي صفة الإيمان عن عليّ، وإنْ أثبت عليه صفة المنّ والتَّفاخر.

لم يصرّح معاوية بن أبي سفيان بمقصده، فهو يرى أنَّ «الامتنان على اللّه يُبطل أجر الجهاد»، ولكن لنتذكّر أهمَّ مقوّمات الإيمان التي ذكرها «القرآن الكريم»، أَوَ ليس الجهاد أوَّلها وأكثرها تواتراً؟ معنى ذلك أنَّ أهمَّ مقصد لمعاوية -وكذلك لعليّ- إثبات خروج منافسه عن جماعة المؤمنين.

ردّ عليّ بن أبي طالب على رسالة معاوية بن أبي سفيان[31]

أمَّا بعد، فقد أتاني كتابك [الذي] تذكر فيه اصطفاء الله محمَّداً صلّى الله عليه وآله لدِينه وتأييدَه إيَّاه بمن أيَّده من أصحابه، فلقد خبَّأ لنا الدَّهر منك عجباً، إذ طفِقتَ تخبرنا ببلاء الله عندنا ونعمته علينا في نبيّنا، فكنت في ذلك كناقل التّمر إلى هَجَرَ [هجر مدينة بالبحرين عُرفت بكثرة النّخيل]، أو داعي مُسدّده إلى النّضال. [المُسدّد المعلّم والنّضال الرّماية وهو مثل يضرب في المُتعالم على مُعَلِّميه]، وزعمت أنَّ أفضل النَّاس في الإسلام فلان وفلان، فذكرت أمراً إنْ تَمَّ، اعتزلك كلّه، [لم يكن لك منه حظّ] وإنْ نقص، لم تلحقك ثُلْمَتُه [العيب]، وما أنت والفاضل والمَفْضُولَ، والسّائس والمَسُوسَ؟ وما للطُّلقاء وأبناء الطّلقاء [الطّلقاء الذين أُطلقوا يوم فتح مكّة، وفي ذلك إشارة إلى تأخّر إسلام معاوية وأبيه وأمّه وسائر أهله]، والتّمييز بين المُهاجرين الأوَّلين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم؟ هيهات، لقدّ حَنَّ قدح ليس منها [حنَّ الصّوت والقِدح السّهم وهو مثل لمن يفتخر بقوم ليس منهم]، وطفق يحكم فيها من عليه الحُكم لها. أَلا تَربعُ أيُّها الإنسان على ظَلَعِكَ [أي قِفْ عند حدّك] وتعرف قصور ذَرْعِكَ، وتتأخَّر حيث أخَّرك القدر، فما عليك غلبة المغلوب ولا لك ظفرُ الظّافر؟

وإنّك لذهَّاب في التّيه رَوَّاغٌ [التّيه: الضَّلال، وروَّاغ أي ميَّال] عن القصد، أَلا ترى -غير مُخبر لك ولكنْ بنعمة الله أُحدّث- أنَّ قوماً استشهدوا في سبيل الله من المُهاجرين ولكلّ فضل، حتَّى إذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشّهداء، وخصَّه رسول الله صلّى الله عليه وآله بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه؟ أَوَ لَا ترى أنَّ قوماً قُطّعت أيديهم في سبيل الله -ولكلّ فضلٌ- حتَّى إذا فُعِلَ بوَاحِدنا ما فُعِلَ بواحدهم قيل الطّيّار في الجنّة وذو الجناحين، ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لَذَكَرَ ذاكر فضائل جمَّة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجّها [لا تنكرها] آذان السّامعين؟ فدَعْ عنك من مالت به الرَّمِيَّةُ، فإنَّا صنائع ربّنا، والنَّاس بعدُ صنائع لنا. لم يمنعنا قديم عزّنا ولا عَادِيّ طولنا على قومك أنْ خلطناكم بأنفسنا، فنَكحنا وأَنْكحنا فعْلَ الأَكْفَاءِ ولستُم هناك، وأنَّى يكون ذلك كذلك ومنّا النّبيّ ومنكم المُكَذِّب، ومنَّا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنَّا سيد شباب أهل الجنّة ومنكم صبية النّار، ومنَّا خير نساء العالمين ومنكم حَمَّالَةُ الحَطَبِ [حمّالة الحطب هي أمّ جميل زوجة أبي لهب عبد العزّى بن عبد المطّلب، وهي أخت أبي سفيان]، كثير ممَّا لنا وعليكم. فإسلامنا قد سُمع وجاهليتنا لا تُدفع، وكتاب الله يجمع لنا ما شذّ عنَّا، وهو قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَولَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ»[32]. في كتاب الله وقوله تعالى: «إِنَّ أَولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ»[33]، فنحن مرَّة أولَى بالقرابة

31- انظر ابن أبي طالب (عليّ): نهج البلاغة، مراجعة علي أحمد حمّو، شرح الشّيخ محمَّد عبده (ت1905م)، المطبعة العصريَّة، صيدا، لبنان، 2005، ص 357 ص 361

32- سورة الأنفال 8 /75

33- سورة آل عمران 3/67

وتارة أَولَى بالطّاعة. ولمَّا احتجَّ المُهاجرون على الأنصار يوم السّقيفة برسول الله صلّى الله عليه وآله فلَجُوا [الظّفر بالشّيء] عليهم، فإنْ يكن الفَلْجُ به فالحقّ لنا دونكم، وإنْ يكن بغيره فالأنصار على دعواهم. وزعمت أنّي لكلّ الخلفاء حسدت وعلى كلّهم بغيتُ، فإنْ يكن ذلك كذلك، فليس الجناية عليك فيكون العذر إليك: «وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا»، وقُلتَ إنّي كنت أُقادُ كما يُقادُ الجَمل المَخشوش حتَّى أُبايع، ولعمرُ الله لقد أرَدْت أنْ تذُمّ فمدحت، وأنْ تفضح فافْتضحْت، وما على المسلم من غضاضة في أنْ يكون مظلوماً ما لم يكن شاكّاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه. وهذه حُجّتي إلى غيرك قصدُها، ولكنّي أطلقتُ لك منها بقدر ما سنح من ذِكرِها.

ثمَّ ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أنْ تُجاب عن هذه لرَحِمِكَ منه، فأيّنا كان أعدى له وأهدى إلى مَقَاتِلِهِ، أَمَّنْ بذل له نُصرته فاستقعده واستكفّه، أَمَّنْ استنصره، فتراخى عنه وبثّ المنُون إليه حتّى أتى قدره عليه؟ كلّا والله، لقد علم «الله الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَينَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا»[34].

وما كنت لأعتذر من أنّي كنت أنقم عليه أحداثاً [البدع]، فإنْ كان الذّنب إليه إرشادي وهدايتي له فرُبَّ ملوم لا ذنب له «وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ»، وما أردت إلّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت.

وذكرت أنَّه ليس لي ولأصحابي إلّا السَّيف. فلقد أضحكت بعد استعبار، متى ألفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين [نكص وجبن] وبالسّيوف مُخوَّفين؟ «لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقْ الْهَيجَا حَمَلْ».

فسيَطلُبُك من تطلب ويَقرُب منك ما تستبعد. وأنا مرقل نحوك في جحفل من المُهاجرين والأنصار والتّابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، وسَاطِع قَتَامُهُم، متسربلين سرابيل الموت، أحبُّ اللّقاء إليهم لقاء ربّهم، قد صحبتهم ذريَّة بدريَّة، وسيوف هاشميَّة، قد عرفتَ مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدّك وأهلك، «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ»[35].

34- سورة الأحزاب 33/18

35- سورة هود11/ 83

إنَّ ما يلفت انتباه الدّارس لردّ الإمام عليّ بن أبي طالب[36]طوله مقارنة برسالة معاوية، فردّ عليّ ضعف رسالة معاوية حجماً، وقد يكون الأمر مفهوماً بالنّظر إلى أنَّ كلّ ردّ يتناول بالضَّرورة المسائل الواردة في الرّسالة الأولى من جهة، وقد يُثير أيضاً مسائل أخرى من جهة أخرى.

وهذان الأمران حاضران في رسالة عليّ بن أبي طالب المُوجَّهة إلى معاوية، على أنَّ ما ميّز الرَّدّ توسُّع المُرسل في الإجابة وتجاوزه المسائل التي حدَّدها معاوية، رغم أنَّ ظاهر الرَّدّ يُخبر بمطابقته لمحتوى رسالة معاوية، ففي الظاهر الرّسالتان مُتطابقتان في البناء وفي الأسلوب وفي القضايا...، فلا شيء يتغيَّر إلّا مواقع الطّرفين، ونعني بهما المُرسِل والمُرسَل إليه.

1. بلاغة الجواب: القول وعدم القول

1. أ ـ الإغماض

إنَّ المتأمّل في رسالة عليّ يجدها تنأى عمَّا حدّده معاوية في رسالته، فلئن سعى معاوية إلى إبراز متانة الصّلة بين الرَّسول وأصحابه، وعلى وجه الدّقة الخلفاء الثّلاثة، فإنَّ عليّاً نحا منحى مخالفاً، فعمد إلى جعل آل البيت مُشاركين للرَّسول في الصّفات، ولتحقيق ذلك وظّف ضمير الجمع المتكلّم «نحن» في مطلع الرّسالة، وهو ضمير حامل لدلالات حجاجيَّة مهمَّة، فلئن كان الضمير «نحن» في فعل «تُخبرنَا» يحيل على عليّ، فإنَّ تحديد المقصود بالضَّمير المُتَّصل بحرف الجرّ في «علينَا» وبالضَّمير الوارد في المركَّب الاسميّ بالإضافة «نبيّنَا»، أمران يحتاجان إلى التَّرويّ وإعادة النَّظر، إذ يصعب على القارئ تحديد المقصود بالضَّمير تحديداً دقيقاً، فيمكن القول إنَّه يحيل على آل البيت، ويمكن نسبته إلى عامَّة المسلمين أو إلى عليّ بن أبي طالب.

فإذا ما صحَّ نسبة الضَّمير إلى عامَّة المسلمين، فإنَّ ذلك يعني بشكل لا يقبل التَّأويل أنَّ معاوية خارج عن المسلمين ولا صلة له بهم. أمَّا إذا كان مُتعلّقاً بآل البيت، فإنَّ الأمر يختلف اختلافاً واضحاً، فنحن إذا ما تأمَّلنا الموضع الذي ورد فيه ذكر آل البيت في رسالة عليّ، أي قوله: «اصطفاء الله محمَّداً صلّى الله عليه وآله لدِينه وتأييدَه»، وجدناه معطوفاً على اسم النّبيّ المسبوق بصفة الاصطفاء، فإذا القول يُوحي بطريقة ضمنيَّة بأنَّ آل

36ـ نقرأ في ابن الأثير (عزّ الدّين): أسد الغابة (سبق ذكره)، مج4، ص87 وما بعدها: «عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي القرشيّ الهاشميّ. ابن عمّ رسول الله، وأمّ عليّ فاطمة بنت أسد بن هاشم. وكنيته: أبو الحسن أخو رسول الله، [... وحضر] جميع المشاهد مع رسول الله إلا تبوك، فإنَّ رسول الله خلفه على أهله، وله في الجميع بلاء عظيم وأثر حسن». وتشير كتب السّير وكتب التّاريخ إلى تولّي عليّ لواء المسلمين في أمَّهات المعارك، من ذلك ما نقله ابن الأثير في«أسد الغابة»: «لمَّا كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللّواء، فلمَّا كان من الغد أخذه عمر ـ وقيل محمَّد بن مسلمة- فقال رسول الله: لأدفعنَّ لوائي إلى رجل لم يرجع حتَّى يفتح الله عليه، فصلّى رسول الله صلاة الغداة، ثمَّ دعا باللواء، فدعا عليّاً». وقد «أعطاه رسول الله اللواء في مواطن كثيرة بيده، منها يوم بدر (وفيه خلاف)، ولمَّا قُتل مصعب بن عمير يوم أحد وكان اللواء بيده، دفعه رسول الله إلى علي. وآخاه رسول الله مرَّتين، فإنَّ رسول الله آخى بين المهاجرين، ثمَّ آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وقال لعليّ في كلّ واحدة منهما: «أنت أخي في الدّنيا والآخرة». [...و] عن أبي أيوب الأنصاريّ قال: قال رسول الله: «لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين، وذلك أنّه لم يُصلّ معي رجل غيره»، و«كان آخر من قدم المدينة من النّاس ولم يُفتن في دينه [...]، ذلك أنَّ رسول الله أخّره بمكّة، وأمره أنْ ينام على فراشه وأجّله ثلاثاً، وأمره أنْ يُؤدّي إلى كلّ ذي حقّ حقّه ففعل. ثمَّ لحق برسول الله [..]، فخرج عليّ في طلبه بعدما أخرج إليه أهله يمشي اللّيل ويكمن النّهار، حتَّى قَدِمَ المدينة. فلمَّا بلغ النّبيَّ قدومه قال: ادعوا لي عليّاً. قيل: يا رسول الله، لا يقدر أنْ يمشي. فأتاه النّبيّ، فلمّا رآه اعتنقه وبكى».

البيت تمَّ اصطفاؤهم شأن الرَّسول محمَّد، وتكون الوظيفة الإعرابيَّة للرّسول وآل البيت مفعولاً به مُتعلّقاً بالفعل «اصطفى»، وقد يُوحي المُركَّب العطفيّ بأنَّ الله صلّى على الرَّسول محمَّد وآل بيته، فتكون الوظيفة الإعرابيَّة للرَّسول وآل البيت مفعولاً به متعلّقاً بالفعل «صلّى».

وبناء على ذلك، فإنَّ آل البيت محفُوفُون بالقداسة شأن الرَّسول ترعاهم العناية الإلهيَّة، فالعلاقة بين آل البيت والذَّات الإلهيَّة علاقة متينة، فَهُم الرَّاعون للرّسالة وحاموها من المشركين والمنافقين والفاسقين، فالله هو مَنْ مَنَّ على آل البيت وأعطاهم تلك المنزلة، وهو من اصطفاهم على سائر البشر، وكلُّ من رفض الإقرار بتلك العطيَّة فهو مارق عن الإسلام وخارج منه.

وقد يكون للاصطفاء مبرّرات أهمُّها صدق آل البيت في أداء الرّسالة الإلهيَّة، فمنهم سيّد الشّهداء، ومنهم طائر الجنَّة، ومنهم...، زدْ على ذلك تواضعهم، فَهُمْ مُدركون أنَّهم «صنائع ربّنا»، واعون وعياً تامَّاً بنعم الله، وهم بها «يُحدّثون»، وهم واعون أيضاً أنَّهم خاصَّة المسلمين، «فالنّاس صنائعنا».

1. ب ـ المقارنة بين آل البيت وبني عبد شمس

مات يوم بدر مَنْ مات من المُسلمين[37]، ولكنَّ حمزة خُصَّ دونهم بـ «سبعين تكبيرة»، وفي السياق نفسه كان طيَّار الجنَّة جعفر بن أبي طالب من آل البيت، ولم يُذكر من المهاجرين أو الأنصار بهذا الاسم غيره.

إنَّنا لا نستطيع تحديد المقصود بضمير الجمع المذكَّر الغائب «هم»، في قوله: «واحدهم»، فالسّياق النَّصّيّ يُوحي بأنَّ المقصود بالضَّمير «قوم قُطّعت أيديهم في سبيل الله»، وقد يكون المُشار إليه بـ «واحدهم» عثمان بن عفّان، على أنَّ الأمر لا يتغيَّر كثيراً، فإنْ كان المقصود زيداً أو عمَّاراً، فإنَّ الأمر خاصٌّ بالمسلمين دون غيرهم، وعلى وجه الدّقة بالمُهاجرين، وفي ذلك يقول عليّ لمعاوية: «وما للطُّلقاء وأبناء الطّلقاء والتّمييز بين المُهاجرين الأوَّلين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم»؟

رام الإمام عليّ بذلك تأكيد علوّ شأن آل البيت على غيرهم أيَّاً كان، فلئن تواضعوا وأظهروا حسن المعاملة، فإنَّ ذلك لا يمنع من القول إنَّهم مُتميّزون ومُميَّزون عن عامَّة المسلمين.

عمل عليّ في هذا المجال على إثبات أمرين: الأمر الأوَّل تواضع آل البيت، فعدَّد المظاهر، وذكر في ما ذكر مصاهرتهم لِمَنْ ليس أهلاً لهم، وأوَّلهم بنو أميَّة، إذ تزوَّج الرَّسول أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان وأخت

37ـ ابن هشام (عبد الملك) (تـ229هـ): السّيرة النّبويَّة، دار الفجر، القاهرة، مصر، ط2، 2004، ج 2، ص277 وما بعدها.

معاوية، وتزوَّج أبو العاص بن الرَّبيع بن عبد العزَّى بن عبد شمس زينب بنت الرَّسول (في الجاهليّة)، وتزوَّج عثمان بن عفَّان بن أبي العاص رقيَّة وأمَّ كلثوم بنتيْ الرَّسول[38].

أمَّا الأمر الثَّاني، فهو ذِكْرُ ما خصَّ به الله آلَ البيت، وقد خصَّص الإمام عليّ بن أبي طالب قسماً مهمَّاً من رسالته للحديث عن ذلك.

والطّريف في هذا المضمار أنَّ الإمام عليَّاً جعل مُعاوية هو من يُقرُّ بذلك، إذ يقول الإمام: «أمَّا بعد، فقد أتاني كتابك [الذي] تذكر فيه اصطفاء الله محمَّدًا صلّى الله عليه وآله لدِينه»، على أنَّ المُتأمّل في رسالة معاوية يُدرك بيسر أنَّ معاوية لم يُشر إلى منزلة آل البيت من قريب أو بعيد، إذ اقتصر كلامه على الرَّسول، ويبدو أنَّ الإمام تعمَّد الجمع بين الرَّسول وآله، كي يُوقع بمعاوية في فخّ ثلب الرَّسول عند المسّ بآل البيت، (وما آل البيت إلّا عليّ بن أبي طالب)، أو أنْ يصمت فيكون الصَّمت إقراراً بعلو كعب آل البيت على غيرهم من بني قريش، وفي مقدّمتهم بنو عبد شمس.

ويكون بذلك رفع عليّ بن أبي طالب عن نفسه الشّبهة بيد خصمه اللّدود، ولتدعيم هذا التّصوُّر نجده يُصوّر نفسه في هيئة المُلتزم بأوامر الشَّرع، فإذا الخلاف بينه وبين عثمان خلاف النَّاصح للمنصوح، وما غضبه من عثمان إلّا غضب المُؤمن ممَّن تجاوز الشَّرع وأفرط في الخروج عن أوامره، «فرُبَّ ملوم لا ذنب له، وقد يستفيد الظّنَّة المنتصح»، لم تكن غاية عليّ «إلّا الإصلاح ما استطاع»، وقد «تَوكَّل» في ذلك على الله، وهو واعٍ بالنَّواهي الإلهيَّة، فـ «لولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لَذَكَرَ ذاكرٌ فضائل جمَّة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجُّها آذان السَّامعين».

من هذا المنظور تكشف أقوال الإمام عن وعيه بمتطلّبات الشَّريعة الإسلاميَّة في ما يتعلّق بآداب المُعاملات، ولا يخلو ذلك من غمز بمعاوية، إذ يُؤاخذ عليّ معاوية على سوء آدابه عندما شبَّهه بالفحل المخشوش[39].

فلئن بلغ الأمر بمعاوية إلى الشَّتم والسَّبّ، فإنَّ عليَّاً لا ينأى بنفسه عن الدُّخول في هذا المضمار فحسب، وإنما يُعرض أيضاً عن ذكر فضائله ومميّزاته اقتداء بالشَّرع الذي نهى عن التّبجّح بالنَّفس والتّفاخر بمآثرها.

إنَّ في إعراض عليّ عن إبراز محاسنه وفضائله وتضحياته في سبيل نشر راية الإسلام من شأنه أنْ يخلق توازناً بين كفتين غير مُتساويتين (معاوية/ عليّ).

38- نشير إلى أنَّ عبد الله بن عمرو بن عثمان تزوَّج بعد مقتل علي فاطمة بنت الحسين بن عليّ بن أبي طالب.

39- نجد أخباراً كثيرة تؤكد مزاعم معاوية، انظر ما نقله محمَّد عابد الجابري: الدّين والدّولة وتطبيق الشّريعة، سلسلة الثّقافة القوميَّة - قضايا الفكر العربي، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، ط1، بيروت، لبنان، 1996، ص16 وما بعدها.

ولا يفوتنا في هذا السياق الإشارة إلى اعتماد معاوية هذا المذهب عندما ذكر فضائل الخلفاء الرَّاشدين مقارنة بعليّ بن أبي طالب، ويبدو لنا أنَّ معاوية استطاع توجيه عليّ عندما جعله يُشير إلى فضائله دون شرح أو تفصيل، وقد يذهب بنا الظّنّ إلى أنَّ السَّبب في ذلك عائد إلى ما ذكره الإمام عليّ من أنّه «لولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه، لَذَكَرَ ذاكر فضائل جمَّة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجُّها آذان السَّامعين»، بيد أنَّنا إذا أعدنا النَّظر في أقوال الإمام عليّ، ألفيناه يذكر فضائله التي «تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجُّها آذان السّامعين»، فالإشارة في مثل هذا الموضع أشدُّ بلاغة من التّفصيل والتّبيان.

وما يشدُّ الانتباه أنَّ عليَّاً تعمَّد عدم الإشارة إلى ما كان بينه وبين سائر الخلفاء، إذ «كان الجواب مُجمجماً غير بيّن»، ولعلَّ الإمام عليَّاً كان واعياً بمقاصد معاوية، فلو تضمَّن ردّه تضمّراً من الخلفاء السّابقين له، لجلب على نفسه عداء عامَّة المسلمين، أمَّا إذا أقرّ بفضائلهم، فإنَّه يقرُّ بشكل أو بآخر بأنَّه ليس أفضلهم، وهو أمر من شأنه أنْ يفتح الباب على مصراعيه لمعاوية كي يقدّم نفسه صنواً لعليّ.

وقصد تجاوز المقارنة بينهما سعى الإمام عليّ إلى توسيع دائرة المقارنة لتطول بني هاشم وبني عبد شمس، فكانت المقارنة شاملة للذّكر والأنثى، الرَّاشد منهم والغرّ. وبالتَّوازي مع ذلك عمد عليّ إلى تذكير معاوية بما كان منه ومن أبيه وسائر أهله من صدّ عن سبيل الله، فهو يشير إلى تأخّر إسلام معاوية وأبيه وأمّه بقوله: «وما للطُّلقاء وأبناء الطّلقاء والتَّمييز بين المهاجرين الأوَّلين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم؟ هيهات، لقد حَنَّ قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحُكم لها».

وما يسترعي الانتباه أنَّ عليَّاً لم يذكر أسماء بعض بني عبد شمس، وفي مقدّمتهم هندٌ بنت عتبة أمّ معاوية التي نهضت بدور مهمّ في محاربة الإسلام والمسلمين والتّنكيل بهم، فهل هو النّسيان أم التّناسي؟ وما مقصد الإمام عليّ من الإعراض عن ذكرها؟

إنَّ القول بنسيان عليّ أمر هند بنت عتبة مسألة لا يمكن طرحها، بل نذهب إلى أنَّ عليَّاً بن أبي طالب أشار إليها في الرّسالة، فلو عدنا إلى قوله: «ما للطُّلقاء وأبناء الطّلقاء...»، لوجدنا هنداً حاضرة في ثناياه، فلو كان المقصود بالطّلقاء أبا سفيان، لكان القول الأسلم ما «للطّليق وابن الطّليق»؟

نذهب هذا المذهب في التّأويل، ونحن نُذكّر بما أورده أبو الحديد في «شرح نهج البلاغة» في الصَّفحة الثّانية والسّبعين بعد المئة الثّانية من الجزء الأوَّل نقلاً عن أبي هلال العسكريّ في «كتاب الأوائل» أنَّ معاوية قام في المسلمين يُحرّضهم على الالتفاف حول عثمان وإلّا ضاع جزاءُ «سبقهم وهجرتهم، فقال له

عليّ عليه السّلام: ما أنتَ وهذا يا ابن اللّخناء! فقال معاوية: مهلاً يا أبا الحسن عن ذكر أمّي، فما كانت بأخسّ نسائكم، ولقد صافحها رسول الله يوم أسلمتْ ولم يُصافح امرأة غيرها، أمَّا لو قالها غيرك...»[40].

تجاوز عليّ ما حدَّده معاوية، فلم يُقم مقارنة بينه وبين الصَّحابة، ولم يُقارن بينه وبين معاوية؛ لأنَّ في المقارنة إعلاء من شأن معاوية، أوَ لم يقل عليّ مخاطباً معاوية: «أَلا تَربعُ أيُّها الإنسان على ظَلَعِكَ وتعرف قصور ذَرْعِكَ، وتتأخَّر حيث أخَّرك القدر»؟

بيد أنَّنا نشير في هذا المجال إلى أمرين: يتمثّل الأوَّل في استبدال عليّ عبارة «الصَّحابة» الواردة برسالة معاوية، بعبارة «المُهاجرين»، وقد تبدو المسألة يسيرة، فلا فرق بين هذا وذاك، لكن متى تذكَّرنا قول الرَّسول «لا هجرة بعد فتح مكّة»، أدركنا مقصد عليّ من استبدال عبارة «الصَّحابة» بعبارة «المُهاجرين»، فمعاوية غيرُ مَعنيّ بأمر المُهاجرين، لأنَّه لم يُهاجر ولم يُجاهد قبل فتح مكَّة. أمَّا الأمر الثّاني، فإنَّه يتمثّل في تناول الإمام عليّ مسألة مراتب أصحاب الرَّسول المُهاجرين من زاوية خاصَّة، إذ أشار إلى أنَّه كان لعثمان من النَّاصحين.

رأى عليّ نفسه أفضل من سائر الخلفاء السَّابقين، فما بال معاوية بنفسه؟ ففي تاريخ ابن جرير الطّبري أنَّ عليَّاً قال ذات يوم: «... إنَّ النَّبيَّ قُبض وما أرى أحداً أَحقَّ بهذا الأمر منّي، فبايع النّاس أبا بكر فبايعت كما بايعوا، ثمَّ إنَّ أبا بكر رضي الله عنه هلك وما أرى أحداً أحقَّ بهذا الأمر منّي، فبايع النَّاس عمر بن الخطاب فبايعت كما بايعوا، ثمَّ إنَّ عمر رضي الله عنه هلك، وما أرى أحداً أحقَّ بهذا الأمر منّي فجعلني سهماً من ستّة أسهم، فبايع النَّاس عثمان فبايعت كما بايعوا، ثمَّ سار النَّاس إلى عثمان رضي الله عنه فقتلوه، ثمَّ أتوني فبايعوني طائعين غير مُكرهين، فأنا مُقاتل من خالفني بمَنْ اتَّبعني حتَّى يحكم الله بيني وبينهم»[41].

2. عزل الشّاهد عن سياقه الأصلي

2. أ ـ كلام الله: من حجَّة الله على عباده إلى حجَّة المُخاصم على خصمه

إنَّ عليَّاً لم يكتفِ بردّ التّهمة بالتّهمة، فلم ينفِ مسؤوليّته عن مقتل عثمان فحسب، وإنَّما كال أيضاً التّهم لغريمه ناسباً تهمة التَّحريض على قتل عثمان إلى معاوية، ضارباً الحجج على ذلك مُقيماً البراهين، فمعاوية هو المُتقاعس عن نصرة ابن عشيرته، في حين بذل عليّ ما استطاع، فكان معاوية يُضمر في نفسه رغبة

40- اللّخناء في لسان العرب لابن منظور، (سبق ذكره)، مادة (ل، خ، ن)، مج 5، ص489 «اللَّخَنُ قُبْحُ رِيحِ الفَرْجِ [...] وَيُقَالُ اللَّخْنَاءُ الَّتِي لَمْ تُخْتَنْ»، وفي كلام الإمام عليّ بن أبي طالب إشارة إلى ما شاع عن هند من فجور وعهر، راجع في ذلك ابن أبي الحديد (عبد الحميد)، «شرح نهج البلاغة»، (سبق ذكره)، مج1، ص270 وما بعدها، أضف إلى ذلك ما ذكرته كتب السّيرة من دور هند في محاربة الإسلام والتّنكيل بآل البيت، ولاسيَّما حمزة بن عبد المطلب، انظر في ذلك ابن هشام (عبد الملك): السّيرة النّبويَّة، (سبق ذكره)، ج 3، ص22 وما بعدها.

41- الطّبري (محمَّد بن جرير): تاريخ الرُّسل والملوك، (سبق ذكره)، ج 4، ص 458

في التّخلّص من عثمان[42]، وهو بذلك يُشارك أهل النّفاق والفُجور والمُعوّقينَ «الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَينَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا»[43].

اعتمد الإمام عليّ في سبيل إبراز علوّ كعبه على كعب معاوية القياس بطريقة مخصوصة، فذَكَّرَ معاوية بما كان بين المُهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وانتهاء الأمر باستئثار المُهاجرين بالخلافة كانت الحجّة فيه قائمة على القرابة/العرق.

وبناءً على ذلك فإنَّ عليًّا كان أولى النَّاس بخلافة الرَّسول، فهو أخوه وصهره، وهو من صلّتْ عليه الملائكة[44]. وإنْ زعم معاوية فساد منطق المُهاجرين يوم «سقيفة بني ساعدة»، فإنَّه يُقيم الحجَّة على نفسه، ويُقرُّ بشكل واضح ببطلان خلافة كلّ من أبي بكر وعمر وعثمان، ذلك أنَّ ما «بُني على فساد فهو فاسد».

وقد وظّف علي في هذا المجال ثلاث آيات قرآنيَّة هي: «وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ». و«إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ». و«قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَينَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا»[45].

عرَّفت الآية الأولى الذين آمنوا بأنَّهم «المُهاجرون والمُجاهدون»، في حين أكَّدت الثَّانية انتصار اللّه للمُؤمنين، أمَّا الآية الثّالثة، ففيها تعريف لأهل النّفاق الذين عُرّفوا بأنَّهم الْمُعَوِّقِينَ الذين يتظاهرون بنصرة إخوانهم وهم يُبطنون الشّرّ والغدر بهم.

ونحن إذا ما ربطنا بين الآيات الثّلاث والسّياق الخاص برسالة علي، ألفيناه يُجرّد معاوية من صفة الإيمان، ذلك أنَّه مَا هاجر ومَا جاهد ومَا أسلم، ولكن استسلم. أمَّا الآية الثّالثة، ففي الاستشهاد بها إشارة إلى نفاق معاوية.

42- ذكر ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» (سبق ذكره)، مج4، ص785 أنَّ معاوية «لمَّا أرسل عثمان إليه [...] يستمدّه، بعث يزيد بن أسد القَسْريّ [...]، وقال له: إذا أتيت ذا خُشُب فأقِمْ بها، ولا تتجاوزها، ولا تَقُلْ: الشّاهد يَرَى ما لا يَرَى الغائب، فإنّني أنا الشّاهد وأنتَ الغَائبُ، قال فأقام بـ «ذي خُشُب» حتَّى قُتل عثمان، فاستقدمه حينئذ معاوية، فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان أُرسل معه، وإنَّما صنع ذلك معاوية ليُقتل عثمان فيدعو النَّاس إلى مبايعته».

43- سورة الأحزاب 33/18

44- نقرأ في ابن الأثير(عزّ الدّين): أسد الغابة، (سبق ذكره)، مج4، ص88: «أنّه» آخاه رسول الله مرَّتين، فإنَّ رسول الله آخى بين المهاجرين، ثمَّ آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، وقال لعليّ في كلّ واحدة منهما: «أنت أخي في الدّنيا والآخرة». [... و] عن أبي أيوب الأنصاريّ قال: قال رسول الله: «لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين، وذاك أنَّه لم يصلّ معي رجل غيره».

45- سورة الأحزاب 33/18

تدرَّجت دلالات الآيات من تبيُّن صفات أهل الإيمان، وخاصَّة «أُولُواْ الأَرْحَـام»، إلى تعريف أهل النّفاق، لتنتهي إلى توعُّد أهل النّفاق بالعقاب، بالاستناد إلى الآية الثّالثة والثّمانين من سورة هود «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

وفي هذا السياق نشير إلى أنَّ عليًّا استخدم جزءاً من آية تعلّقت بمصير آل لوط، إذ نقرأ في هود11/-83 77 «وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَومٌ عَصِيبٌ وَجَاءهُ قَومُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ [...] فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

صوَّرت الآيات القرآنيَّة ما أصاب قوم لوط من عذاب تمثّل في نزول «حِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ منضُودٍ»، وفي المُقابل يكون سيف عليّ أداة العقاب الإلهيّ الذي سينزله الله بمعاوية، فإذا موضع الآية في رسالة عليّ يُوحي بتساوي أمر معاوية وأمر قوم لوط من جهة، ومن جهة أخرى تؤكّد الآية انتصار عليّ لأنَّه لا يُمثّل ذاته بل يُمثّل الإرادة الإلهيَّة.

بُنيت الآيات في رسالة عليّ بناءً دقيقاً، فهي تتدرَّج من الآيات التي تُعرّف الجماعة المُؤمنة، إلى الآيات التي تُصوّر مصير الكافرين والمُشركين والخارجين عن الإرادة الإلهيَّة.

إنَّ المصرّح به بسيط، وقوامه أنَّ معاوية ليس من الصَّحابة المُهاجرين، وليس ممَّنْ له الحقّ في تصنيف طبقاتهم ومعرفة مراتبهم، فهو لم يكن من المُهاجرين ولا من الأنصار، بيد أنَّ الإشارة في هذا المقام كانت أشدَّ وقعاً في النَّفس من التصريح، ففي كلام علي غمز وتلميح، فمعاوية من الطّلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكَّة، إيمان الخائف على نفسه، لا إيمان الصَّادق، فهل الطّلقاء مسلمون أم مُستسلمون؟ وهو أمر نجد جوابه في خاتمة الرَّدّ، ذلك أنَّ عليًّا وعد معاوية ببدر جديدة!

ذكَّر عليّ معاوية بيوم بدر(2هـ) وما نال أهله (أهل الشّرك) فيه من خزي وما غنمه آل البيت وعامَّة المسلمين من عزّ وفخر، وقد تعمَّد عليّ استخدام عبارات تُبرز ما قام به من تنكيل ببني عبد شمس، بقوله «... وسيوف هاشميَّة قد عرفتَ مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدّك وأهلك»، ففي بدر قتل عليّ بحنظلة بن أبي سفيان (وهو أخو معاوية) وعتبة (جدّ معاوية) والوليد بن عتبة (خال معاوية)[46]...

إنَّ ذكر ما كان بين المسلمين والمشركين في يوم بدر محاولة لإحراج معاوية، والإحراج في مثل هذه المواطن يُعدُّ شكلاً من أشكال التّأثير النّفسيّ من جهة، وهو شكل من أشكال الوعيد من جهة أخرى.

46- نجد اختلافاً بين الرُّواة في تحديد قاتل حنظلة، فبعضهم ذهب إلى القول إنَّ زيداً بن حارثة هو من قتله، وكذا الأمر بالنّسبة إلى قاتل عُتبة، إذ ذهبت جماعة إلى القول إنَّ عبدة بن الحارث بن عبد المطّلب هو منْ قتله. انظر في ذلك ابن هشام (عبد الملك): السّيرة النّبويَّة، (سبق ذكره)، ج 2، ص 278

بيد أنَّ الذي يشدُّ الأذهان هو اعتماد عليّ على عبارة معيَّنة حاول من خلالها إصباغ شرعيَّة دينيَّة على أعماله، فهو مرقل نحو عدوه «في جحفل من المُهاجرين والأنصار والتَّابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، وساطع قتامُهُم، متسربلين سرابيل الموت، أحبُّ اللقاء إليهم لقاء ربّهم، قد صحبتهم ذريَّة بدريَّة»، فإذا المُواجهة بين عليّ ومعاوية عودة على بدء إلى المُواجهة التي دارت بين الرَّسول ومُشركي قريش، وعلى رأسهم أبو سفيان، فلئن كان عليّ امتداداً للرَّسول، فإنَّ معاوية امتداد لأبيه وأخواله وأجداده، فهذا «حزب الله»، وذاك «حزب الشّيطان»، هذا حزب المُهاجرين والأنصار وذاك حزب مشركي مكَّة وحلفائهم، وكلٌّ إناء بما فيه يرشح.

2. ب ـ دلالة الأمثال والأشعار المستشهد بها على المسكوت عنه في الرّسالة

تميَّزت رسالة الإمام باستنادها إلى الشّعر والأمثال، ففي ما يتعلق بالشعر اكتفى الإمام عليّ بأجزاء من الأبيات مع عدم الإحالة على أصحابها، ومن شأن ذلك أنْ يمنح النَّصّ المُستشهد به قدرة أكثر على الانغماس في نسيج النَّصّ المُستشهد فيه.

وفي هذا المجال نشير إلى أنَّه لا يمكن بأيَّة حال فهم مقاصد الأبيات الشّعريَّة ودورها في رسالة الإمام إلّا بتبيُّن السّياقات الأصليَّة والوقوف على الأجزاء المحذوفة، فإذا البيت الأوَّل المنسوب إلى أبي ذؤيب الهذليّ، وهو:

وَعَيَّرَهَا الوَاشُونَ أنّي أُحِبُّهَا

وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

إنَّ الشَّطر الثّاني يُؤكّد عجز المُكلّم عن إدراك حقائق الأشياء، لأنَّه جاهل بأسبابها، أمَّا البيت الثّاني، فهو لشاعر مجهول، وفيه يقول:

وَكَمْ سُقْتُ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ

وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةَ المُتَنَصِّحُ

بدا المتكلّم بريئاً من التّهم المنسوبة إليه، ذلك أنَّه قد يُتّهم النَّاصح بالخيانة، وقد تُثار حوله الشّكوك والظّنون، في حين ينعم بالتّكريم وحسن الظّنّ الخائن وصاحب الفتن والمَكائد. أمَّا البيت الثّالث المنسوب إلى «ابن بدر»، فإنَّ قوله:

لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَق الْهَيجَا حَمَلْ

لاَ بَأْسَ بِالْمَوتِ إِذَا الْمَوتُ نَزَلْ

كشف عن تساوي الأمور لديه، فهو لا يعبأ بأمر الحرب والموت، في حين أنَّ الإمام استعار الشَّطر الأوَّل من البيت ليتوعَّد معاوية بالعقاب.

هكذا يتَّضح لنا أنَّ الشَّواهد ـأمثالاً أو أشعاراًـ كانت مُنسجمة مع مقاصد النَّصّ المُستشهَد فيه. فلئن كان بعضها أنشأه صاحبه ـولاسيَّما البيت المنسوب إلى أبي ذؤيبـ لغاية تنأى عمَّا أراده الإمام عليّ، فإنَّ السّياق الجديد أعطاها مقاصد جديدة.

يُعدُّ توظيف الأمثال والأشعار من الأمور الدَّارجة في كلام العرب مكتوباً كان أم شفويَّاً، بيد أنَّها في رسالة الإمام عليّ تتَّخذ في تقديرنا دلالات جديدة، فهي دالة بالأساس على أنَّ «البلاغة أسُّ الصّراع»، بها ينتصر زيد على عمَّار قبل الانتصار في الواقعة.

بقدر ما اختزلت الأمثال والأبيات الشّعريَّة أقوال الإمام ودعَّمتها، فإنَّها احتوت على إشارات تضمَّنت اتّهامات موجَّهة إلى معاوية، فلئن كان عليّ النَّاصح المظلوم، فإنَّ معاوية هو الكائد المنصور.

ونحن إذا ما تأمَّلنا في الأمثال والتَّشابيه الواردة في رسالة الإمام، وجدناها تنصرف إلى غاية واحدة[47]، وهي تقديم صورة لمعاوية قوامها التَّطفّل في ما لا يعنيه، وتقديم نفسه لما ليس هو أهلاً له، فهو«... كناقل التَّمر إلى هَجَرَ أو داعي مُسدّده إلى النّضال». ناهيك أنَّ قول الإمام في وصف معاوية «هيهات لقد حَنَّ قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحُكم لها»، وهو قول تضمَّن سخرية واضحة، رام من خلالها الإمام إقصاء معاوية من مجال الصّراع، فهو لم يكن ولن يكون المُنافس، لأنَّه ما كان يوماً كفْءاً لعلي.

نهضت أمثال العرب والتَّشابيه باختزال الصُّورة، فكانت شكلاً من أشكال الإيجاز البليغ، وهي إلى جانب ذلك منحت ناسجها (الصُّورة) قدرة على التَّأثير في المُتلقّي (المرسَل إليه) بإقناعه أو إحجام صوته.

47ـ نشير في هذا المجال إلى أنَّ القدامى اشترطوا وجود تناسب في المقام وتشابه في السّياق بين المثل في وضعه الأصليّ والمثل في النّصّ المُستشهد فيه من جهة، وحبّذوا أنْ يكون المُستشهد بالمثل واعياً بأصله من جهة أخرى، انظر في ذلك التّباب (ناجي): وظيفة الأمثال والحكم في النّثر الفنّيّ القديم، سلسلة أطروحات، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بالقيروان، ودار سحر، تونس، 2004، ص 61 وما بعدها. «المُزهر في علوم اللّغة وأنواعها» لجلال الدّين السّيوطيّ (تـ911هـ/1505 م) في النّوع الخامس والثّلاثين «معرفة الأمثال»، تعريف للمثل نُسب إلى أبي عُبَيد، مضمونه أنَّ «الأمثال حكمة العرب في الجاهليَّة والإسلام، وبها كانت تعاوض كلامها فتبلغ بها ما حاوَلتْ من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خِلال: إيجازُ اللّفظ وإصابة المعنى وحسن التّشبيه، [...أمّا] الفارابي [...فـ]ـالمثْل [هو ما] استدرُّوا به المُمتنع من الدّرّ ووصلوا به إلى المطالب القصيَّة وتفرَّجوا به عن الكرب [...]، وهو من أبْلغ الحِكمة». السّيوطي (جلال الدّين عبد الرّحمن): المُزهر في علوم اللّغة وأنواعها، شرح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم ومحمَّد أحمد جاد المولى بك وعليّ محمَّد البجاوي، مكتبة التّراث، القاهرة، مصر، ط3، (دت)، ج1، ص486».

خاتمة

حاولنا في هذا البحث، رصد تجلّيات المسكوت عنه وآليَّاته، وتبيّن أهم وظائفه، استناداً على رسالتين متبادلتين بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب، وقد انتهى بنا البحث إلى جملة من النتائج، منها: أنَّ قراءة المكتوب تظلُّ قراءة عديمة الجدوى ما لم يتبيَّن القارئ دور المسكوت عنه في بناء دلالات النَّصّ، فالمنطوق به لا يُعبّر بالضَّرورة عن مقاصد المُرسِل، بل في أغلب الأحيان يتعمَّد الإنسان السُّكوت بدلاً من النُّطق للتأثير في المرسَل إليه وإقامة الحجَّة عليه أو لإحراجه وجعله أقلَّ شأناً من المُرسِل (الخصم السياسي)، فإذا السُّكوت فعل واعٍ حامل لدلالات مخصوصة، وهو في الكثير من الأحيان يكون أبلغ من المنطوق به.

إنَّ من أخصّ ما ميَّز «المسكوت عنه» في الرّسالتين خضوعه إلى مقتضيات المقام (الصّراع السّياسيّ المُتّخذ من الدّين شعاراً) ومتطلبات الخطاب السّياسيّ، فاعتماد معاوية وعليّ عليه دال على النّضج الذي بلغه الخطاب السّياسيّ العربيّ الإسلاميّ في تلك الفترة، إذ تنوَّعت الأساليب وتعدَّدت طرق بنائِه، فكان «الخطاب السّياسيّ» قائماً على خطط مدروسة، فإذا الحرب «حرب بلاغة»[48] بالأساس، وفي تلك الحرب تُباح المحظورات، وتُنتهك المُحرَّمات -دون الجهر بذلك-[49] قبل أنْ يتقاتل المتخاصمون الأقارب في ساحة الوغى[50].

أمَّا في ما يتَّصل بالآليَّات، فإنَّ كلَّ واحد من الرَّجلين لم يعتمد النَّص الدّيني للإشارة إلى موقفه فحسب، وإنَّما حاول أيضاً من خلال الحذف والإغماض المسّ بالمرسَل إليه والحطّ من شأنه وإحراجه بالتّلميح إلى أصوله أو مواقفه من الإسلام والمسلمين (الشرك بالله، معاداة الرَّسول، معاداة الخلفاء، ...).

وقد بيَّنا كيف انتهى التلميح بكلّ واحد منهما إلى تكفير الآخر، فالمرسِل عمد إلى نفي صفة الإيمان عن المرسَل إليه كي يقصيه من دائرة الخلافة، وفي ما يتعلق بهذه المسألة لاحظنا اعتماد علي بن أبي طالب تقنيات متنوّعة (المماثلة، التشبيه، القياس، ...).

وترتّب على ذلك القول: إنَّ النَّصَّ السياسي نصٌّ مراوغ، يرفض أنْ ينصاع إلى قارئه إلّا بعد ممانعة ومماطلة، وذلك شكل من أشكال «لذّة النّصّ»، إذ يصعب تبيُّن دلالاته ما لم يلمّ دارسه بنصوص غائبة وأحداث ضاربة في القدم لها صلة بماضي الشخوص وما كان بينها من علاقات.

48- ذكرت كتب الأخبار أنَّ معاوية تعمَّد التأخّر في الرَّدّ على رسائل عليّ، ونرجّح أنَّ المسألة تتعلق بوعي معاوية بأهمّيَّة صناعة «الكلام».

49- نقرأ في كتب التاريخ أنَّ معاوية اختلق كتاباً نسبه إلى قيس بن سعد والي مصر، يؤكد فيه مُبايعته معاوية ووقوفه إلى جانبه في محاربة عليّ.

50- نشير إلى انضواء محمَّد بن أبي بكر في حزب عليّ في مواجهة طلحة والزّبير وأخته عائشة.

إنَّ الوقوف على الدَّور الذي نهض به المسكوت عنه في الرّسالتين يؤكّد لنا أنَّ الدّين حرَّكته مطامع السياسي، فالمسكوت عنه في الرّسائل المتبادلة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان بُني وفق خلفيَّات عرقيَّة (القرابة) وحسابات شخصيَّة أذكتها رغبة كلّ طرف في تحقيق مطامعه السّياسيَّة من جهة، ومن جهة أخرى كان المسكوت عنه شكلاً من أشكال الإسكات (إفحام الخصم).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021